وبين الناس سرادق وهم يصلون خلفه بصلاته، وجلس رئيس الرؤساء للعزاء ثلاثة أيام، وحضر أرباب الدولة، ومنع القائم من ضرب الطبول ثلاثة أيام، وكذا السلطان، فلمَّا كان اليوم الرابع حضر عميد الملك وزير السلطان بين يدي القائم، وأدَّى عن السلطان رسالةً تتضمَّن التعزيةَ والسؤالَ بقيام الوزير والجماعة من مجلس التعزية، فقاموا، ثم حُمِلَ تابوتُه بعد ذلك إلى الرُّصافة.

السنة الثامنة والأربعون وأربع مئة

فيها من أول هذه السنة ابتدأ أبو الحسن محمد بن هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابىء الكاتب ـ ويُسمَّى غرس النعمة ـ تاريخَه وذيلَه على تاريخ أبيه هلال، وزعم أن تاريخ أبيه انتهى إلى هذه السنة، فقال: وفي أول سنة ثمان وأربعين وأربع مئة يوم الخميس عقد عميد الملك أبو نصر منصور بن محمد الكُنْدُري وزيرُ السلطان رُكنِ الدين طُغْرُلْبَك أبي طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق لتاج الملوك أبي كاليجار هزارسب بن بَنكير بن عياض الكردي على ضمان البصرة والأهواز وأعمالها لهذه السنة، بثلاث مئة ألف دينار وستين ألفاً، وأُطلِقَتْ يدُه في جميع الإقطاعات والمعاملات بالبصرة وخوزستان، وأُقطِعَ أَرَّجان، وأُذِن له في ذكر اسمه في الخطبة بهذه الأعمال دون غيرها، وعرَفَ الدَّيلم البصرية والخوزستانية الواردون إلى باب طُغْرُلْبَك، فقلقوا، فقال السلطان: يفعل تاج الملوك فيها ما يراه. فانصرفوا وقد يئسوا، وثقُلَ ذلك على الأمير أبي علي بن أبي كاليجار بن بُوَيه؛ لأنه كان ورد باب السلطان مؤمِّلاً لذلك، وراسل السلطان بزوجته وولده بحكم قرابتهما منه، وكان السلطان قد زوَّج أخاه فلم يُجِبْه، وعوَّضه قُوماسين إقطاعاً عوضاً مما أخذ منه، وخرج جماعة من الغلمان البغدادية إلى البساسيري، فغمز عليهم، فكمن لهم خُمارتِكين الطُغْرُلْبي خادمُ السلطان ومعه جماعة بأمر رئيس الرؤساء، فقتلوهم وكانوا أكثر من عشرين من الأعيان والمُقدَّمين، فلم يُفْلِتْ منهم إلا قليل، ولم يتجاسر أحدٌ من أهل المُقتَّلين بقربهم من رئيس الرؤساء، فغُسِّلوا في سقاية بباب الأزج ودُفنوا.

وفي المُحرَّم كتب السلطان كتاباً إلى خراسان يخبرهم بدخوله بغداد وما جرى له، وولى الكُنْدُريُّ أبا الغنائم بن فَسانْجِس واسطاً وأعمالَها، فسار إليها.

وفي ليلة الخميس لثمانٍ بَقِينَ من المُحرَّم عقد الخليفة على خديجة المدعوَّة أرسلان خاتون بنت الأمير جُغْري بك أبي سليمان داود أخي طُغْرُلْبَك، وحضر في التاريخ الخليفة وعميد الملك وأبو علي بن الملك أبي كاليجار وأعيان الدَّيلم والدولة والقضاة والعدول، واجتمعوا في بيت النوبة ماعدا الخليفة، وكتب الوزير إلى الخليفة يُعَرِّفه حضورهم، فأمر بوصول مَنْ أراد منهم، وقام الوزير رئيس الرؤساء فقال: أطال اللهُ بقاءَ سيدنا ومولانا الإمام أمير المؤمنين، هؤلاء أكابر المشرق قد حضروا داعين شاكرين. فقال عميد الملك: نحن عبيدُ مولانا وخدمُه وغرسُه وصنائعُه. فقال الخليفة: بارك الله لنا فيكم. وقرأ رئيس الرؤساء خطبة النكاح، ثم قال: إن رأى سيدنا ومولانا أن يُنعِمَ بالقبول فعلتُ. فقال: قد قبِلْنا هذا النكاح بهذا الصَّداق، جعل الله لنا ولكم ما فيه الخير(١) والنجاح. وكان الصَّداقُ مئة ألف دينار، وخرج القوم.

وفي صفر أخرج السلطان المبارك الخادم إلى هَمَذان لِيُحضِرَ بنتَ أخيه زوجة الخليفة إلى بغداد، وزُفَّت إلى الخليفة في شعبان، وسبب هذه الوصلة لَمَّا ورد السلطان بغداد أراد الاتصال بالخليفة بمصاهرة يتجمَّل بها على الملوك، فسمَّى خاتون على الذخيرة بن القائم، فتوفي، فعدل إلى القائم وتكررت رسائل الخليفة بطلبها، فجمع السلطانُ الأمراءَ والقضاةَ والشهودَ والعلماءَ والتجارَ إلى داره، وأُدخلوا إلى بيوت مزينة قد عبيء فيها الجهاز حتى شاهدوه.

وفي يوم الأحد سادس شعبان نُقِلَ إلى دار الخليفة ـ وكان شيئاً لم يُرَ مثلُه ـ من الجنائب والبغال والعَماريات والمال والجواهر واليواقيت وأواني الذهب والفضة، وثمانون جارية من الأبكار، عليهنَّ أقبية الديباج والمناطق المجوهرة، وتحتهنَّ الخيل المسوَّمة والبغلات الرومية، وستُّ عَماريات على البغال، على قَبابها الجواهر وغيرُ ذلك، ودخل رئيس الرؤساء على السلطان، وقال: أمير المؤمنين يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وقد أذِنَ في نقل الوديعة إلى الدار المعمورة،

(١) في (ف): الخيرة.

فقال: سمعاً وطاعةً للأوامر الشريفة. ومضت السيدةُ والدةُ الخليفة في الزبازب إلى دار المملكة، وراسلت[١] زوجةَ السلطان في تسليم خاتون، فأرسلت[٢] بها إليها من غير أن تخرج إلى أم الخليفة، فانحدرت بها، ودخلت من باب الغربة، وقد ضربَتْ سُرادقاتٍ على دِجْلة، ودخلت خاتونُ على الخليفة، وقبّلتِ الأرضَ مراراً، فأدناها إليه، وأجلسها إلى جنبه، وطرح عليها فَرَجِيَّةً مطمومةً بالذهب كانت عليه، وتاجاً مُرصَّعاً بالجواهر، وأعطاها من الغد مئةَ ثوب من الديباج وقصب الذهب، وطاسةَ ذهب مُثبتاً فيها الياقوت والفيروزج، وعِقْدَ حَبٍّ له قيمة، وبعث السلطان لزوجته بنت أبي كاليجار بن بُوَيه هديةً عشرةَ أحمال ثياباً وآلاتٍ وصناعاتٍ وغيرَها، وأمر بحملها إلى الري، وأمر السلطانُ الأتراكَ الذين ببغداد بالمسير إلى خراسان، فشقَّ عليهم، وتضرَّعوا فلم يُغْنِ شيئاً، ووقفوا للسلطان، فخاطبهم بالجميل ثم سكت عنهم، وهؤلاء هم الذين أخذوا بغداد، وابتدأ طُغْرُلْبَك بعمارة سور عريض على داره، دخل فيه قطعة كبيرة من الحرم ودار الفيل، وجمع الصنّاع لتجديد دار المملكة العَضُدية، وبنى عليها الأبراج، وخَرِبت الدور والمحالُّ والأسواق المجاورة لها بالجانب الشرقي، وقُلِعت أخشاب دور الأتراك من الجانب الغربي وحُمِلت إليها.

وفيها عمَّ الوباء والقحط ببغداد والشام ومصر والدنيا، وكان الناس يأكلون الميتة، وبلغت الرمانةُ والسَّفَرْجَلَةُ ديناراً، وكذا الخيارة واللينوفرة، وانقطع ماء النيل بمصر، فكان يموت كلَّ يوم عشرةُ آلاف، وباع عطارٌ بمصر في يوم ألفَ قارورة شراب، وعمَّ القحط في الدنيا كلها.

[وقال محمد بن هلال بن الصابىء: وقفت على كتاب ورد من مصر][٣] أن ثلاثة من اللصوص نقبوا نقباً، فوُجِدوا عند الصباح موتى [كلُّهم] أحدهم على باب النقب، والثاني على رأس الدرجة، والثالث على الثِّيابِ المكوَّرة[٤].

(١) بعدها في (خ) و(ف) ـ والخبر فيهما ـ زيادة: خاتون، وهي زيادة مقحمة، والله أعلم.
(٢) في (خ): فراسلت، والمثبت من (ف).
(٣) في (خ) و(ف): وورد كتاب من مصر.
(٤) في (خ) و(ف): الكارة، والمثبت من (م) و(م١)، وهو الموافق لما في المنتظم ١٦/٦ .

وفي غُرَّة صفر كان بين مَنيع بن شبيب بن وثَّاب النُّميري صاحب حَرَّان وبين مُعِزّ الدولة أبي علوان ثِمال بن صالح بن الزَّوقلية صاحب حلب حربٌ على الرقة، وكانت لشبيب والد منيع، واتَّفق أنه مات وخلف منيعاً صغيراً، وتزوجت أمُّه بثِمال، وسلَّمتِ الرقة إليهِ، فلمَّا كبر ولدُها وانضافت إليه القبائل واسترجع حَرَّان، وكتب [له](١) طُغْرُلْبَك المنشور وبعث إليه الخِلَع أرسل إلى ثِمال يطلب الرقة، فمنعه، فقامت الحربُ بينهما.

وفي يوم الأربعاء ثاني عشر صفر تقدَّم رئيس الرؤساء بنصب أعلام سود في الكَرْخ، فخاف أهلُه، وكان مجتهداً في هلاكهم وعميد الملك يمنعه.

وفي صفر ورد الخبرُ بأنَّ البساسيري على عزم المسير إلى بغداد، فعزم السلطان بنفسه على المسير إلى الرحبة، فمنعه رئيس الرؤساء، وقال: بعض الإسْفَهسلارية يفعل هذا.

وفيها سار مقبل [ابن بدران](٢) أخي قُرَيش(٣) من بغداد إلى الجزيرة والخابور والرحبة ومعه ابن وَرَّام وجماعة العرب والأكراد إلى البساسيري، داخلين في طاعته، ومفارقين قريشاً، نافرين عنه، وسببه أنَّ البساسيري كان اصطنع مقبلاً، وأخذ له خِلْعةً من الملك الرَّحيم لمَّا كان بواسط، وسلَّم إليه البلاد العليا التي كان البساسيري انتزعها من قريش، وحصلت بينه وبين أخيه وحشة، فلمَّا قرب طُغْرُلْبَك من بغداد ومضى البساسيري إلى الرحبة خاف مقبلٌ من أخيه، فصالحه ونزل عليه، وفي نفس كلِّ واحد منهما على صاحبه، فلمَّا سار البساسيري إلى الرحبة صار قريش ونور الدولة بن مَزْيَد في طاعة طُغْرُلْبَك طمعاً في حراسة بلادهما من النهب، فوضع مقبل العرب على أن قالوا لقريش: أليس هؤلاء الغُزَّ الذين قتلنا في سنة خمس وثلاثين أولادَهم وأصحابَهم وسبيناهم، ولهم في رقابنا دماءٌ يطلبونها؟ فإن دخلنا في زمرتهم سلَّمنا إليهم أرواحَنا وأهلَنا وأموالَنا وبلادَنا. فقال لهم قريش: أنتم مُحِقُّون في قولكم، غير أنَّ هذا سلطانٌ

(١) هذه الزيادة من (ف).

(٢) ما بين حاصرتين من الكامل ٩/٦٢٦.

(٣) في (خ): دبيس، والمثبت من (ف).

عظيم، ومعه عسكر كبير، ومتى لم ندخل معهم أخربوا بلادنا، ونهبوا أموالنا، ولم يكن لنا قدرة على دفعهم، والرأيُ ملاطفتُه وخدمتُه، فإننا نتعجَّل السلامة، وندفع الأذى. فلم يقبَلْ أكثرُهم، وشاع ورودُ مال من مصر إلى البساسيري، وأنه على تفريقه في العرب، وانحدر إلى بغداد، فمالوا إلى البساسيري، وعدلوا عن قريش، وكان صاحب مصر مائلاً إلى قريش وهو له كاره، وكان الوزير اليازوري يكاتبه ويستعطفه، وكان عنوان كتابه إليه: من الناصرِ للدين، غياثِ المسلمين، الأجلِّ، الأوحدِ، المكينِ، سيدِ الوزراء، وتاجِ الأصفياء، وقاضي القُضاة، وداعي الدُّعاة، علمِ المجد، خليلِ أمير المؤمنين وخالصِه، أبي محمد الحسين بن علي بن عبد الرَّحيم، إلى الأمير مصطفى الدولة وخِصِّيصِها أبي المعالي قريش بن بدرانَ ـ أدام الله سلامته وسعادته ونعمته ـ أما بعد، فإنك بِبَيتٍ أَهلُهُ على الولاء لأهل البيت عليهم السلام نَبَتَتْ لُحومُهُم، وإلى محبتهم انتمت أرواحُهم وجسومُهم، وإن الدولة النبوية ـ أدامها الله ـ على غاية من حُسن الرأي فيك، وقد تعجب[1] لمفارقتك صاحب الجيش ـ يعني البساسيري ـ ومصيرك إلى محلٍّ لو كان آمناً الأمنين وملجأ الأبدين لكان الواجبُ يكون بينه وبينك بُعدُ المشرِقَين والمغرِبَين، وذكر كلاماً طويلاً.

وفي ربيع الأول وردت هدية أبي نصر بن مروان إلى السلطان، وكانت ثياباً ألواناً، وخيلاً، وثلاث زواريق طعم، وشيئاً كثيراً.

وفي سلخ ربيع الأول تقدم الخليفة إلى السلطان بالمسير إلى الشام، ويبدأ بالرحبة، ويأخذ البساسيري ويعبر الفرات، ويقيم الدعوة على منابر الإسلام، فأمر السلطانُ العساكرَ بأن يتجهَّزوا ويبعثوا ليحضروا خَرْكاواتهم، وأولادهم وأهلهم يكونوا بالعراق، ويتوجَّهوا معه إلى الشام، فقالوا: هذه بلاد خَرابٍ، وليس بها أقوات ولا عُلوفات، ولم يَبْقَ معنا نفقات، ونحن عاجزون عن المُقام على ظهور خيولنا، فكيف إذا جاء أهلونا وخيولُنا ودوابُّنا وقد طالت غيبتُنا، ولا بُدَّ لنا من الإلمام بأهلنا، ونحن نستأذن في العَودِ إليهم، ونعود حيث يُرسَمُ لنا، فقبض السلطان على جماعة منهم، وضربهم وقيَّدهم واعتقلهم أياماً، ثم شفع فيهم فأُطلقوا، وضمن عليهم أنهم بعد

(١) في (خ) الكلمة غير واضحة، وأثبتت من (ف).

المهرجان يسيرون إلى الشام، وأمرهم أن يستصحبوا الملك الرَّحيم من قلعة السيروان إلى قلعة الري فيعتقلونه بقلعة طَبْرك، ففعلوا.

وفي يوم السبت ثاني عشر ربيع الآخر ورد ديلمٌ من دار السلطان إلى زوجة البساسيري المعتقلة بباب المراتب، وقد أُحيلوا بأرزاقهم عليها فعاقبوها، فضمنها حاجب باب المراتب على ألفي دينار، وأخذها منهم إلى داره، فلم يقدِرْ على إبقائها، فأعادها إلى اعتقالها، فاتصلت العقوبةُ والمطالبةُ لها.

وفي هذا الوقت قَلَّ العسكرُ ببغداد، ومضى أكثرهم إلى خراسان، وشنَّتْ بنو شيبان الغارات، وطلبوا الخفارات، وكثرت الأراجيف بانضمام جماعة من العرب إلى البساسيري ووصول أبي نصر بن أبي عمران الداعية رسولاً من مصر إليه بمالٍ كثيرٍ وخِلَعٍ وألقابٍ، وأنه أخذ البيعة عليه وعلى من معه من الأتراك والأكراد والعرب، وأنهم على عزم قصد بغداد، وبعث السلطانُ عميدُ الملك إلى الخليفة يقول: إن العساكر قد تفرَّقت، وبقي منهم نفرٌ يسير، ولا بُدَّ لهم مما يقوم بهم، وإلا لحقوا بالباقين وخلا البلد، وكان رئيس الرؤساء قد ضمن لي ثلاثَ مئة ألف دينار إذا قدمتُ العراق، فأوصل إليَّ مئة وثمانين ألفاً، وارتدَّ الباقي، وتردَّد الكلامُ، فقال رئيس الرؤساء: إنما كنتُ أُحصِّلُها من أموال البساسيري وأصحابه، وقد ذهبت، ولكن أنا أقوم في هذا الوقت بعشرين ألف دينار. ثم صادر الناس حتى حصلَها، واعتقل زهرة جارية البساسيري وأولادها منه، وطُولِبَتْ بمال، فلم يكن لها شيء.

وفي سابع جمادى الأولى ولدت جاريةٌ كانت للذخيرة بن القائم ولداً ذكراً، وكان قد تُوفِّي عنها وهي حامل، يُكنى أبا القاسم، وسُمِّي عبدَ الله، ولُقِّب عدة الدين عماد الإسلام والمسلمين، وفرح الخليفة، وجلس وزيره للتهنئة، ولم يكن للقائم ولدٌ، ووَلِيَ هذا المولود الخلافةَ، وحمل السلطان وخاتون والوزير للخليفة أموالاً وثياباً.

وفي هذا الوقت تجدَّدت العقوبة على زوجة البساسيري.

وفي هذا الشهر وردت طائفة من عسكر السلطان فأُنزلوا في دور الناس، وفرض عليهم لهم خمس مئة دينار، فاجتمعوا إلى عميد العراق، فقال: هذه عادتنا في بلادنا، وأنتم تُرجفون على الدولة وبُعدِ العساكر، وقد أعاد السلطانُ العساكرَ إليكم، فإقامتُها

عليكم، فبادروا إلى جمعِه وحملِه، فجمعوا خمس مئة، وقسطوها على الكَرْخ وما حوله، فاجتمعوا إلى دار الخليفة وقالوا: هذا شيء ما ألِفْناه، وقد أفنى الحريقُ والنَّهبُ أموالَنا. فبعث الخليفة إلى الكُنْدُري يقول: قد قَبُحَتِ السيرةُ، وساءتِ السُّمعةُ، وكثُرتِ الشَّناعة. فيُقال: إنه أسقطها عنهم.

وفي هذا الوقت مضى قوم من الخراسانية إلى محلَّة الحربية فطالبوهم بمال، فقالوا: نحن قوم مستورون، وبمساجدنا مشتغلون، ولِما تقصَّدَنا [الناسُ][١] به من زكواتهم وصدقاتهم محتاجون، فلم يلتفتوا إليهم وضربوهم، وأخذوا ما وجدوا لهم، وباع أهل الحربية نفوسَهم بما جمعوه من معارفهم، ثم جاؤوا إلى قصر عيسى فأخرجوا أهلَ الدور ورمَوْهم على الشوارع، فبَنَوا أكواخاً من قصب تحت دار الخليفة، وأقاموا بها، وفرشوا البواريَ على باب الغربة والمسوحَ وضجُّوا، وكان فيهم جماعةٌ من أهل البيوتات لهم حالٌ، فقُبِضَ عليهم من باب الدار، وصُودروا على قدر أحوالهم من الألف دينار إلى عشرة دنانير، واشتدَّ البلاء على أهل بغداد وشحذوا، ومات أكثرهم تحت الضرب وفي الحبوس.

وفي هذا الوقت ورد الخبرُ من واسط بأنَّ أبا الغنائم بن فَسانْجِس والتُّرك عصَوا على السلطان، وكان عميد الملك قد ولَّاه، فبلغه أنهم على عزم عزله ومصادرته، فاستمال الأتراكَ، وورد عليه طائفةٌ من الديلم والأكراد والرجَّالة فقدَّموه عليهم، فأنفق فيهم الأموال، وزوَّر كتباً عن البساسيري يَعِدهم الإحسان والإقطاعات، ويَعِد أهلَ البلد العدل، وكان الترك قد نفروا من السلطان؛ لأنه قتل منهم جماعةً، وكاتبَ أهلَ البَطيحة فوافقوه، وحفر الخنادق حول واسط، وبنى أسواراً عاليةً، وركَّب عليها أبوابَ الحديد، وبعث الكُنْدُريُّ رسولاً يصلح الحال، فاجتمع ابن فَسانْجِس والأتراك، فقالوا: نحن الخدم الطائعون، إلا أنَّ السلطان غيرُ محتاجٍ إلينا، ولا مهتمٍّ بنا، ومعه من العساكرِ الجمَّةِ المختلفة ما نصغُر نحن فيهم، وقد رأينا ما جرى على إخواننا البغدادية ـ وهم أعزُّ جانباً منا ـ كيف أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، وصُودرت إسْفَهْسَلاريتُهم، وقُتِلَ من قُتِلَ منهم، وبَقُوا مُطرحين على الطرق، وقد نفرت قلوبُنا من

(١) هذه الزيادة في (ف).

هذا، فإن قنع منا بإقامة الخطبة ونقشِ السَّكَّة، وحَمْلِ مالٍ من غير أن يُولِّي علينا خراسانياً، فنحن سامعون مطيعون، وإلا خلعنا الطاعة، واغتربنا إلى غير هذه الجهة، فإمَّا أن نعيش أعِزَّاء، أو نهلك عزيزين.

وفي ثاني عشر جمادى الآخرة استدعى الخليفةُ رئيسَ الرؤساء، وأظهر التذمُّرَ والامتعاض مما الرعية عليه، وقال: قد أُنهي إليَّ ما سمِعَتْه أُذني وشاهدَتْه عيني، ومن ارتفاع الدعاء ما أنا به مُطالب، هذا إلى ما أخافه من سريع المكافأة، وأنا مع ركن الدين بين قسمين؛ إمَّا اعتمادُ الحقِّ، واستعمالُ العدل، وإنصافُ الرعية وإعفاؤهم من كل أذيَّة، وإعادتُهم إلى مساكنهم، وصيانتُهم في معيشتهم، وأمانُهم على نفوسهم، وحراسةُ أموالهم، أو المساعدةُ على مفارقتي لهذا البلد، وبُعدي عن هذه البدع، ولا أقلَّ من اعتزالٍ عنها، والتبرِّي عند الله منها. فيستدعي منصور بن محمد الكُنْدُري، ويُعرفه ذلك من غير مراقبةٍ في إيرادِهِ يستعملها، ولا مجافاةٍ في شَرحِهِ يقصدها، ويُحقِّق ما يكون من الجواب ويطالع به، فأرسل إلى الكُنْدُريِّ فحضر، وأعاد عليه ما جرى، فمضى الكُنْدُريُّ إلى السلطان، وأعاد عليه ما قال، فردَّه بالجواب، وقال: أنا الخادم الطائع في كلِّ حال، وما علمتُ بما جرى، ولا أمرتُ به، ولا هو من عادتي، إلا أن هذا العسكرَ كثيرٌ لا قدرةَ لي على حفظه، وربما بدَتْ منهم أفعالٌ لا أرضاها، وسأتقدم بما يَبينُ أَثَرُهُ، ويَحسُنُ موقعُه. قال الكُنْدُريُّ: ومضيتُ من عنده، فلمَّا كان وقت السحر استدعاني وقال لي: اعلَمْ أنني نِمْتُ البارحةَ وأنا مشغولُ الفكر في الرسالة، عالمٌ بأن ما يجري من هذا العسكر في رقبتي، وأنني مسؤولٌ عنه، فرأيت في منامي كأنني بمكة إذ شاهدتُ شخصاً وقع لي أنه رسول الله ﷺ، فقصدتُه لأُسَلِّمَ عليه، فلوى وجهه عني، وبَعُدَ مني، وقال: قد ملَّكَكَ اللهُ البلاد والعباد، وجعل يدَكَ عليهم عالية، وأوامركَ فيهم نافذة ماضية، فأحسِنِ السيرةَ فيهم، وأجمِلِ المعاملةَ معهم، وامنعِ الأذى عنهم، وارفَعِ الظُّلمَ، واستأمِنْ هذا الجيش [، ثم استيقظتُ فزعاً من هذه الرؤيا التي][1] قد روَّعتني، فاذهب إلى الديوان، واشرَحْ ما جرى، ففعل ذلك، فخرج جواب الخليفة

(١) مكانها بياض في الأصل (خ)، وفي (ف) الكلام متصل من دون وجود هذا البياض! والخبر ليس في (م) و(م١)، وما بين حاصرتين من الكامل ٩/ ٦٣٥ .

ببشارة السلطان بما رآه من مشاهدة النبي ﷺ، وهي أعظم مِنَّةٍ، ثم كتب توقيعاً إلى السلطان يتضمن العدل والإنصاف والوعظ، فقرأه رئيسُ الرؤساء، فبكى السلطان، وتقدم بالعدل وإخراج العساكر من دور الناس، وعاد إليها أربابُها، وطابَتْ قلوبُهم، وفتحوا دكاكينَهم، وعادوا إلى ما كانوا عليه.

وفي يوم الأحد سابع عشر جمادى الآخرة برز بعض العساكر السلطانية إلى الشَّمَّاسِية، وأمر أبا الفوارس قُتُلْمِش بالتقدمة عليها.

وسبب ذلك تردُّد الرسائل(١) بين السلطان وبين قريش ودُبيس تتضمَّن الشكوى من الجند، ويسألان أن ينحدرا إلى تِكريت، ويخرج إليهم عميد الملك، ويُقرِّر ما يجب تقريره في بلادهما أُسوةً بتاج الملوك، وأعفاهما من الغُزِّ، فأرسل إليهما أن عميدَ الملك خارجٌ إلى تِكريت لتعزُّز ذلك، فجمعا أصحابهما وانحدرا، فأُشيع بأنَّ انحدارهما على نية فاسدة، وقاعدةٍ بينهما وبين البساسيري مستقرة، فتقدم عميد الملك إلى العسكر بالخروج إلى عُكْبَرا، ونهب الأعمال العليا والبلاد المريدية، فنُهِبَتْ سُوراء(٢) ومطارياد(٣) وغيرُهما، وحُمِلت المواشي إلى بغداد فبِيعت، وخربت البلاد، واندرست آثار القرى، وهَجَّ من كان بقي فيها، وجاء كتاب قريش يقول: بلغنا أنه أُرجِفَ علينا أنَّنا سِرْنا على نيةٍ فاسدةٍ وطويَّةٍ مخالفة، ومَعاذَ الله أن نشُقَّ عصا، أو نعِدَ وعداً وما نفي به، وما نحن إلا الخدم الطائعون. فبعث عميدُ الملك إلى قُتُلْمِش أن يتوقف بعُكْبَرا حتى تتضح الحال.

وفي العشر الثاني من جمادى الآخرة ظهر وقت السَّحر في مطالع برج الأسد الجنوبية ذؤابةٌ بيضاءُ طولها في رأي العين نحوُ عشرة أذرع في عرض الذراع، ولبثت على هذه الحالة إلى نصف رجب، ثم اضمحلَّت وقيل: لرئيس الرؤساء [أبي القاسم]،

(١) في (خ): الرسل، والمثبت من (ف).
(٢) سُوراء: موضع إلى جانب بغداد. معجم البلدان ٣/ ٢٧٨.
(٣) هكذا في الأصلين (خ) و(ف)، ولم أقف على موضع بهذا الاسم، وإنما وجدت مَطارة: وهي قرية من قرى البصرة على ضفة دجلة والفرات. معجم البلدان ٥/ ١٤٧.

أنَّه كان بمصر ويسمع مستفاضاً بين أهلها أنه لمَّا طلعت هذه الذؤابة ملك الغُزُّ مصر. قال: وأظنُّ أن القوم يملكون بغداد، فكان كما قال.

قلت: وقد ظهر مثلُ هذه الذؤابة من ناحية الشرق، إلا أنها كانت ذوائب [مثل هذه](١) فكان خروج التتر عقبها [وذلك في] سنة سبع عشرة وست مئة.

ولما تحقَّق السلطان أنَّ ما قيل عن قريش وابن مَزْيَد لا أصل له أمر الكُنْدُري بإنفاذ أبي الفتح المظفر بن محمد العميد وجماعة من الأعيان إلى تِكريت ليجتمعوا بقُريش ودُبيس، فاجتمعوا في خيمة قريش، فقال العميد: السلطان على نية الانحدار إلى شيراز، فهذه البلاد ما تحمله، ويفوِّض الأمور إليكما لتكونا نائبين عنه بالعراق، ويريد أن تخلُفا. فقال قريش: هذا ولدي يكون في دار الخلافة رهينةً. فطلبوا من دُبَيس رهينة. فقال: السلطان قد أعفاني. فقال العميد: فهذا قريش قد أعطانا رهينةً، ولستَ بخير منه. فقال: ما أعطيكم شيئاً. فقال له العميد: فأحد أولادك عند اللعين البساسيري، وأعيان أصحابك، وهذه أمور تُوجِبُ الارتياب بك، وقلَّةُ السكون إليك، وهذا علم الدين أبو المعالي المبرَّأُ من هذه الأسباب، والموالي للسلطان في كل حال، والذي يجب أن نكون به واثقين، قد أعطانا الرهائن، وحلف لنا بالأيمان المؤكدة مع أننا لا نرتاب بصحة موالاته وخالص طاعاته، فأنت أولى. فقال: ما انحدرتُ إلا معتقداً للطاعة، وأنتم الذين رجعتم عمَّا قررتموه، ونهبتم بلادي بعد انحداري، وكسرتم جاهي، وقطعتم معاشي، وإذا كان هذا حالي معكم فلِمَ أغِلُّ يدي وأنت خليٌّ(٢) ممن يبذل الأموال، ويوسعني في الأعمال؟ وأغلظ للرسل، ثم قام فركب راحلته ومضى إلى البساسيري، وسلَّم قريشٌ ولدَه علياً إلى الرسل رهينةً وعمره ثلاث سنين، ومعه دابة وبدوي، وقال: تكون في الدار العزيزة عند الخليفة. ثم إن العرب نفرت عن قريش، وصوَّبَتْ رأي دُبيس، وأصعد قريش إلى الموصل خائفاً منهم ومن أخيه مقبل، ثم بعث إلى بغداد في رجب يطلب نجدةً ومالاً يُفرِّقه في العشيرة، فإن البساسيري على قصْدِه، فجهَّز إليه خمسَ مئة غلام، فأقاموه بباب الشَّمَّاسية مع باتكين الحاجب.

(١) هذه الزيادة من (ف) وحدها.

(٢) في (خ): وأنتم حيلي، والمثبت من (ف).

وفيه نقضت الروم الهدنةَ التي كانت بينها وبين صاحب مصر، وجاؤوا بالمراكب، فنزلوا على طرابلس الشام، وأحدقوا بها، فبعث محمد بن أبي عقيل قاضي صور إلى الروم جمعاً كبيراً، ووقعت بين الفريقين وقائعُ قُتِلَ فيها خلقٌ عظيم، فرحلوا عن طرابلس، وصعدوا من المراكب، ووصلوا إلى الخوابي وأنطَرسوس[1] فسبوا وقتلوا ثم عادوا فنزلوا على اللاذقية.

وفي تاسع شعبان برز قُتُلْمِش بالعساكر نحو واسط لقتال ابن فَسانْجِس، ثم أُعيدت الخيم في ذلك اليوم، وسببه ورود كتاب قريش إلى البساسيري ودُبيس ومقبل وابن وَرَّام وابن خَفاجة نزلوا الخابور قاصدين الموصل، فَردَّ الكُنْدُري العسكرَ، وبعث الخليفةُ رسالةً إلى واسط بتطييب قلوب مَنْ فيها، فقالوا: نحن طائعون بحيث نبقى على ما نحن عليه. وجرَّد السلطانُ ابنَ عمه قُتُلْمِش والحاجب الكبير وغيرهما في ألفي فارس من الأتراك والغُزِّ والتركمان وعشرةِ آلاف دينار ومئتي ثوب؛ ليفرِّقها قريش في بني عقيل، وخِلعةٍ جميلة لقريش، وقريشٌ بمركب ذهب ومُنجوق، ولمسلم بن قريش مثلُ ذلك، ثم ورد الخبر بأن القوم في الرحبة على عزم إنفاذ مقبل لقتال أخيه وانتزاع الموصل من يده، فكوتب قُتُلْمِش بالإصعادِ على حاله إلى الموصل، وقَصْدِ القوم ومناجزتهم أينما كانوا.

وفي رمضان أخرج الخليفةُ والسلطانُ جميعَ من كان ببغداد من الأتراك العُتَّق الذين كانوا يفعلون بجلال الدولة ما فعلوا، فلم يبْقَ لهم أثر، ونفاهم إلى الدِّيْنَور وحُلوان، ومزَّقَهم كلَّ مُمزَّق.

وفيه أسلم كاتب البساسيري من شدة العقوبة والمطالبة بالأموال، فَزِيد في عقوبته.

وفيه عزم السلطان على الخروج بنفسه إلى البساسيري، فمنعه القائم وقال: أقِمْ وابعَثِ العساكر.

وفي شوال سار عميد العراق أبو نصر إلى واسط، فأسر جماعةً من الأتراك، وغَرَّق آخرين، وقَتَلَ، وانهزم الباقون في السفن إلى البَطيحة هاربين، وهدم سورَ واسط، وطمَّ الخنادق، وكتب إلى السلطان بالفتح، وكان ابن فَسانْجِس قد هرب إلى البَطيحَة.

---

(١) هكذا في الأصلين (خ) و(ف)، وفي معجم البلدان ١/ ٢٧٠ : أنطَرْطوس ـ بطاء ثانية بعد الراء ـ: وهي بلدة من سواحل بحر الشام، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص.

وفيه كانت وقعة سنجار بين البساسيري وقُتُلْمِش، فكانت الدَّبَرة[١] على قُتُلْمِش، وسببه أنه سار من بغداد بالغُزِّ، فنهبوا بلاد العرب، وسبَوا نساءهم، فمالوا إلى البساسيري، وكان قريشٌ نازلاً بتلِّ أعفر، فلما قربوا منه حَذِرَ مقاربتهم، وسار بعيداً عنهم، ولم يختلط بهم، وراسل دُبيس بني عقيل الذين مع قريش، وبذل لهم العطاء، وخوَّفهم ما يؤول إليه أمر العرب مع الغُزِّ، وكان البساسيري ودُبيس ومقبل وابن وَرَّام وبطون العرب والغلمان البغدادية والأكراد نزولاً على فرسخين منهم، وكاتبوا قريشاً، فلم يلتفت إليهم، فأفسدوا القبائل، فلمَّا كان أول ذي القعدة ظهر أوائل خيل البساسيري، فركب أصحاب قريش نحوها، ثم انضووا إليها أولاً أولاً، وقليلاً قليلاً، حتى بقي قريش في عدد يسير من أصحابه وحاشيته، وأظلَّه القوم، ولحقه دُبيس فأغلظ له، وقال: انْجُ بنفسك. فترك قُريشٌ التجافيف، وركب فرساً خفيفاً، ونجا بنفسه، وأراد مقبل أن ينهب حلةَ قريش، فمنعَتْه أختُه وزوجة دُبيس، ونزلت في الحلة فحمتها، وعرفت الغُزُّ [الذين فيها][٢] الخبر، فجاؤوا صفوفاً، والتقوا، فاقتتلوا إلى العصر، فحمل البساسيري ودُبيس ومَنْ معهم عليهم حملةً واحدةً، فهزموهم وقتلوهم وشرَّدوهم، وقتل الحاجب الكبير، وهرب قُتُلْمِش ومن معه، وغنم البساسيري وأصحابُه غنائمَ كثيرةً، وقتل خلقاً كثيراً، وبعث إلى مصر بألفي فارس[٣] ومئتي رأس.

وفي رواية: كان مسير البساسيري من الرحبة عاشر رمضان بعدما فرَّق الأموالَ الواردةَ إليه من مصر والخِلَع، وكانت خِلَعاً نفيسةً؛ طميم الذهب، وعمائم ملونة، ومراكب الذهب، والأعلام على القصب والفضة، ومهد على رأسه رصافية ذهب عليها اسم صاحب مصر، وسِجافُه دَبيقيٌّ[٤] أزرقُ مُصْمَتٌ بالذهب، وحمل إليهم الأموال، فإلى دُبيس ثلاثين ألف دينار، وإلى أمراء العرب على أقدارهم، وأعطى دُبيساً ثلثَ الموصل، ومقبلاً الثلثين، وأقطع الجزيرة للعرب، وسار إلى الخابور وقريشٌ بتلِّ أعفر

(١) الدَّبَرة: الهزيمة. المعجم الوسيط (دبر).

(٢) هذه الزيادة من (ف).

(٣) تحرفت في (ف) إلى: رأس.

(٤) السِّجاف: الستر، والدَّبيقي، نسبة إلى دَبيق: وهي قرية في مصر. المعجم الوسيط (سجف) و(دبق).

في بني عقيل، ولم يعلم البساسيري أن السلطان قد أنجده بقُتُلْمِش، ونزل البساسيري بالشَّمَّاسية وبينها وبين تل أعفر عشرون فرسخاً، وبين سنجار اثنا عشر فرسخاً، ثم علم بنجدة السلطان لقريش، فانزعج وخاف، واتفق مع الجماعة على إفساد بني عقيل عن قريش، وتمَّ لهم ذلك، وساروا وقد جعل البساسيري في الميمنة دُبيساً، وفي الميسرة جابر بن ناشب والأكراد، ووقف في القلب والإماء بين أيديهم يضرِبْنَ بالدفوف، ويُنشِدْن الأشعار التي فيها ذكرُ الحروب، وتوافى العسكران وقريش في عشرة آلاف فارس، وعسكر السلطان عنهم نحو فرسخ، وتطاردوا [فبرز من عسكر قريش نحو مئتي فارس، وتطاردوا][1] وقلبوا أرماحهم واستأمنوا، ثم تلاهم آخرون وآخرون حتى تقوَّض مَنْ كان مع قريش وبقي وحدَه، وبلغ السلطان، فكتب إلى أخيه لأمه إبراهيم يَنَّال بالمسير إليه في العساكر، وكتب إلى عميد العراق يستدعيه من واسط، وعرض على الجند من الديلم وغيرهم، وأنفق فيهم الأموال والسلاح، وتأهَّب للمسير بنفسه.

وفي خامس عشرين شوَّال أُخرِجَ أبو الحسين بن عبيد كاتب البساسيري إلى النَّجمي ومعه ابن النسوي، فقدَّمه وضرب عنقه بعدما أسلم، وجاء الخبر إلى السلطان بأن البساسيري دخل الموصل، وخطب لصاحب مصر بها، وأمن الناس، وأنه على عزم الانحدار إلى بغداد، فبرز السلطان بعسكره إلى باب الشَّمَّاسية في ذي القعدة، وكان لم يزل مُؤثِراً للمسير إلى العرب ومناجزتهم استطالةً لمُقامه بالعراق، وطلباً للعود إلى خراسان، والخليفةُ يراسله بالتوقف عن خروجه بنفسه، ويُهوِّن الأمرَ عليه، ومضى لهذه الوقعة نيِّفٌ وثلاثون يوماً، لم يقِفْ لهم على خبر، فيئس من سلامتهم، ووصل الخبر بأن البساسيري وصل الموصل، وضرب معسكره على سمت بغداد، فراسل الخليفةَ في الخروج إلى الموصل، فما أمكنَه دَفْعُه؛ لأنه دفعه مرات فقال: افعَلْ ما تراه، فنحن ما نُؤثِرُ بُعدَكَ عنا. ثم بعث إليه رئيس الرؤساء وهو بالمخيم، وقال: [إنَّ] أمير المؤمنين ما يُؤثِرُ خروجك، وإذا أقمتَ وبعثت العساكر كان أكثرَ للهيبة. فقال: قد كان الصواب أن أخرُجَ إلى هؤلاء، وعسكري متوفر، والهيبة قائمة فمنعتَ، فأُشير عليَّ بإنفاذ العساكر إليهم والمُقام، فجرى ما جرى، وقد قووا وكثروا، ولا بُدَّ من مسيري

(١) هذه الزيادة والتي ستأتي من (ف).

إليهم قبل أن يتفاقم الأمر. وأغلظ لرئيس الرؤساء وقال: أنتم فعلتُم هذا. فثقُلَ عليه ما سمع، وظنَّ أنه قد تغيَّر اعتقادُه، فرجع واجماً[١]، وطالع الخليفة بذلك، فعزَّ عليه.

وسار السلطان في سادس ذي القعدة، ومعه الخزائن وآلات الحصار، فكان مُقامه ببغداد ثلاثة عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً، ولم يلقَ الخليفة على العادة.

وفي تاسعه سُلِّمتْ زوجةُ البساسيري وزهرةُ جاريتُه وابنتُه منها إلى أصحاب السلطان من محبسهم[٢] بباب المراتب، وحملوهم إلى الجبل ليعتقلوهم في بعض القلاع، وأقام عميد العراق في دار المملكة.

وفي هذا الشهر عاد ابن فَسانْجِس ومَنْ معه من الديلم والترك إلى واسط، ونهب قرية عبد الله من ضياع الخليفة، وقتل مَنْ فيها، وأخذ سفناً فيها متاع للخليفة، وبيَّضَ حائط جامع واسط، ومحا ما كان على قبلته من ألقاب بني العباس، ونصب على المنبر لواءين أبيضين، وخطب لصاحب مصر، ونقش على الدنانير والدراهم اسمَه، وخطب لصاحب مصر ـ أيضاً ـ بالكوفة، وفرَّق في المشهد مالاً على العلويين، وبيَّضَ حائط الجامع، وأُزيل اسمُ القائم، وكُتب مكانه اسم صاحب مصر، والذي فعل ذلك بدر بن علي أخو دُبيس. وقيل: محمود بن الأخرم الخفاجي.

وفيه سار قريش إلى دُبيس ونزل عليه، فتكفَّل بأمره، وأزال الوحشة بينه وبين أخيه والبساسيري، ولبس قريش خِلْعة آتيةً من مصر، وأخذ مالاً بعث به إليه، وسار السلطان من عُكْبَرا رابع عشر منه بعد أن نهبها العسكر، وجمع تلك البلاد، وهرب الرجال والنساء على أقبح صورة.

وفي سابع ذي الحجَّة فتح السلطان تِكريت، وكان لمَّا نزل مقابِلَها راسل عيسى بن خميس صاحبَها، وطالبَه بمال وغَلَّة، فأذعن بذلك، فلما عبر الرسولُ لقبضه ـ وكان الغلاءُ قد عمَّ البلاد ـ فقام أهل تِكريت، وشتموا الرسول، وقالوا: هذه البلاد للبساسيري. فعبر السلطان إليهم من الجانب الشرقي فحاربهم، وصَعِدها ودخل أكثرُ أهلها إلى القلعة، وهلك في الزحمة جماعةٌ، ونهب البلد، وسبى الحريم، وقُتِلَ خلقٌ

(١) وجَمَ: عبس وأطرق وسكت عن الكلام من شدة الحزن. المعجم الوسيط (وجم).

(٢) في (خ): مجلسهم، والمثبت من (ف).

obeikandl.com

كثير، واتصل الحصار، وراسل صاحبُها السلطانَ في الصلح، وقرَّر على نفسه ثلاثة آلاف دينار، وطلب أعلاماً سوداء تُعلَّق على القلعة، ففعل السلطان، وسار منها سادس عشره متوجهاً إلى الموصل بعد أن أفرج عن النساء المأخوذات من تِكريت وردَّهُنَّ إلى أهاليهنَّ، وكُنَّ زيادةً على ثلاثة آلاف امرأة، وسار إلى البَوازيج، وأقام ينتظر إبراهيم يَنَّال والنجدة التي تأتيه من الشرق، ونهبَ أصحابُه النواحي، وجَلا أهلُها عنها، وأمَّا أهل الموصل فأجفلوا هاربين، ولم يبقَ فيها إلا الضعفاء والفقراء، وسار البساسيري ومن معه عن الموصل سبع فراسخ، وخطب محمد بن الأخرم الخفاجي للمصريين في الكوفة والحِلَّة والعين وشفاثا وسُوراء والوقف، وخطب ابن فَسانْجِس لهم بواسط وجميع أعمالها، ولم يبقَ غيرُ بغداد.

وفيها أُقيم الأذان في مشهد موسى بن جعفر ومساجد الكَرْخ بالصلاة خير من النوم، وأُزيل ما كانوا يقولونه من: حيَّ على خير العمل، ودخل من أهل باب البصرة قوم، فأنشدوا الأشعار في مدح الصحابة، وتقدَّم رئيس الرؤساء إلى النسوي صاحب الشرطة بقتل أبي عبد الله بن الجلاب شيخ البزَّازين بباب الطاق؛ لِما كان يتظاهر به من سبِّ الصحابة، فقُتِلَ وصُلِب على باب دُكَّانه، وهرب أبو جعفر الطوسي فقيهُ الشيعة ومُصنِّف التفسير، فنُهبت دارُه.

ولم يحجَّ أحد من العراق [في هذه السنة].

وكان صاحب حلب ثِمال بن صالح بن مِرداس ووالي دمشق حيدرة بن الحسن بن مفلح.

وفيها تُوفِّي

جعفر بن محمد بن عبد الواحد

أبو طالب، الجعفري، الشريف، الطُّوسي، شيخ الصوفية بنوقان، سافر إلى البلاد في طلب الحديث، وسمع بالعراقين وخراسان والشام وغيرها، وكان زاهداً عابداً ورعاً صدوقاً ثقةً، قال الشافعي: [من المنسرح]

صبراً قريباً ما أقربَ الفرجا مَنْ راقبَ اللهَ في الأمور نجا
مَنْ صدقَ اللهَ لم ينلْهُ أذى ومَنْ رجَاهُ يكونُ حيثُ رَجا

وأخرج له القشيري أبياتاً وهي: [من الطويل]

فكيف وما استدعانيَ الذِّكرُ ساعةً لغيرِكَ إلا كنتَ فاتحةَ الذِّكرِ
ولا سنحَتْ لي خطرةٌ نحوَ حاضرٍ ولا غائبٍ إلَّا وأنتَ لها المُجري
بفقري بوجدي باغترابي بوحدتي بطولِ البُكا مني على فائتِ العمرِ
تَلافَ الذي قد ماتَ مني بنظرةٍ أصولُ بها يوم القيامةِ في الحشرِ

[وفيها تُوفِّي]

علي بن أحمد بن علي(١)

أبو الحسن، المؤدِّب، من قرية ببلد البصرة يقال لها: فالة، بفاء. أقام بالبصرة مدة، وسمع الحديث، وقدم بغداد، وأقام بها، وتُوفِّي في ذي القعدة، ودفن بمقبرة جامع المنصور، وكان شاعراً فصيحاً، ثقةً، ومن شعره: [من الكامل]

لمَّا تبدلتِ المجالسُ أوجهاً غيرَ الذين عهدتُ من علمائها
ورأيتُها محفوفةً بسِوى الأُلى كانوا ولاةَ صدورِها وفِنائها
أنشدتُ بيتاً سائراً متقدماً والعينُ قد شرقَتْ بحَمَّةِ(٢) مائها
أمَّا الخيامُ فإنها كخيامهم وأرى نساءَ الحيِّ غيرَ نسائها

وقال: [من الطويل]

تصدَّرَ للتدريسِ كلُّ مُهوَّسٍ بليدٍ يُسمَّى بالفقيهِ المدرِّسِ
فحُقَّ لأهلِ العلمِ أن يتمثَّلوا ببيتٍ قديمٍ شاعَ في كلِّ مجلسِ
لقد هزُلَتْ حتى بدا من هُزالِها كُلاها وحتى سامها كلُّ مُفْلِسِ

وكان قد باع «الجمهرة» لابن دريد وندم بعد ذلك، فقال: [من الطويل]

أنِسْتُ بها عشرين حولاً وبِعْتُها فقد طالَ وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظنِّي أنني سأبيعُها ولو خلَّدَتْني في السجونِ ديوني

(١) المنتظم ١٦/ ٩ـ١٠، و معجم الأدباء ١٢/ ٢٢٨-٢٢٩، وتاريخ بغداد ١١/ ٣٣٤، و الأنساب ٩/ ٢٣٣. وينظر السير ١٨/ ٥٤.

(٢) في المنتظم ومعجم الأدباء: بجاري.

ولكن لضعفٍ وافتقارٍ وصبيةٍ صغارٍ عليهم تستهِلُّ شؤوني
فقلتُ ولم أملِكْ سوابقَ عَبْرتي مقالةَ مكويِّ الفؤادِ حزينِ
لقد(١) تخرج الحاجاتُ يا أمَّ مالكٍ ذخائرَ من ربٍّ(٢) بهن ضنينِ

[وفيها تُوفِّيت]

فاطمة بنت القادر [بالله (٣)

أمير المؤمنين] أخت القائم بالله، توفيت فأُخرج تابوتُها، ونُقل معها الذخيرة بن القائم، فصلى عليهما الخليفة في صحن السلام، وأُنزِلَ التابوتان في الطيار، ونزل معهما رئيس الرؤساء، وحُمِلا إلى الرُّصافة فدُفِنا، وجلس رئيس الرؤساء للعزاء، فلم يجلس معه(٤) أربعون رجلاً؛ لاشتغال قلوب الناس بالموت والوباء والغلاء والخوف من كلِّ ناحية.

[وفيها تُوفِّي]

محمد بن أيوب(٥)

أبو طالب، عميد الرؤساء، ولد سنة سبعين وثلاث مئة، وكتب للقائم ستة عشر سنة، وتوفي عن ثمان وسبعين سنة، وكان فاضلاً شجاعاً.

[وفيها تُوفِّي]

محمد بن عبد الواحد(٦)

ابن محمد، أبو الفرج، الدارمي، البغدادي، ولد سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة، وقيل: سنة ثمانين وثلاث مئة، سكن دمشق، وكان أحد العلماء، موصوفاً بالفهم

---

(١) هكذا في المنتظم، وأما في باقي المصادر: وقد.
(٢) في المنتظم وحده: رزء.
(٣) المنتظم ١٦/ ١١.
(٤) بعدها في (خ) زيادة كلمة: إلا، وهي ليست في باقي النسخ، ولا في المنتظم.
(٥) المنتظم ١٦/ ١١.
(٦) تاريخ دمشق ٥٤/ ١٥٧-١٦٠، و تاريخ بغداد ٢/ ٣٦١-٣٦٢. وينظر السير ١٨/ ٥٣.

والذكاء والفطنة والفقه والحساب وقول الشعر، سافر عن بغداد، وسكن الرَّحبة، ثم انتقل إلى دمشق فاستوطنها، وتوفي بها ليلة الجمعة، وصُلِّي عليه يوم الجمعة مُستهلَّ ذي القعدة، ودُفن بباب الفراديس، وحضر جنازته خلقٌ عظيم، وكان صدوقاً، وقال: مرضتُ فعادني أبو حامد الإسفراييني، فقلت: [من السريع]

مرضتُ فارتَحْتُ إلى عائدِ ... فعادني العالمُ في واحدِ
ذاك الإمام ابنُ أبي طاهرٍ ... أحمدُ ذو الفضلِ أبو حامدِ

وقال: [من المنسرح]

أعراضُ قلبي غَدَتْ معرَّفةً ... فاجتمعَتْ في الحبيب أعراضي
لا بُدَّ منه ومِنْ هواهُ ولو ... قرَّضني سيِّدي بمقراضِ
تودُّه مُهجتي وإن تَلِفَتْ ... تَوَدُّهُ في التراب أبعاضي

[وفيها تُوفِّي]

هلال بن المُحسِّن(١)

ابن إبراهيم بن هلال، أبو الحسين، الكاتب، الصابىء، صاحب التاريخ، ولد سنة تسع وخمسين وثلاث مئة، وجدُّه [أبو أبيه أبو إسحاق] إبراهيم صاحب الرسائل، وكان أبوه المحسن صابئاً أيضاً، فأمَّا هو فأسلم متأخراً [وكان يطلب الأدب]، و[كان] سبب إسلامه [ما أنبأنا به غير واحد عن أبي الفضل بن ناصر، حدثنا الرئيس أبو علي محمد بن سعيد بن نبهان الكاتب قال: حدثني هلال بن المحسن الصابىء قال: رأيتُ في المنام سنة تسع وتسعين وثلاث مئة رسولَ الله ﷺ قد جاء إلى الموضع الذي أنا فيه، والزمان شتاء، والبرد شديد، فأقامني، فأرعدتُ حين رأيتُه، فقال لا تُرَعْ، فإني رسول الله، وحملني إلى بالوعة في الدار عليها دورق خزف وفيه ماء، وقال: توضأ، فتوضأت وضوء الصلاة، وكان الماء في الدورق جامداً، فكسرته، ثم قام فصلَّى بي، وجذبني إلى جانبه، وقرأ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ وركع وسجد، وأنا أفعل مثل فعله، وقام ثانياً وقرأ الحمد وسورة، ثم سلَّم وأقبل عليَّ وقال: أنت رجل عاقل

(١) المنتظم ١٦/١٣-١٤، وتاريخ بغداد ١٤/٧٦، ومعجم الأدباء ١٩/ ٢٩٤.

obeikandl.com

محصل، واللهُ يريد بك خيراً، فلِمَ تدَعُ الإسلامَ الذي قامت عليه الدلائل والبراهين، وتقيمُ على ما أنت عليه، هاتِ يدَكَ وصافِحْني، فأعطيتُه يدي، فقال: قل: أسلمتُ وجهيَ لله، أشهد أن لا إله إلا الله الواحد الصَّمد[1]، الذي لم يكن له صاحبةٌ ولا ولد، وأنك يا محمد رسولُ الله إلى عباده بالبينات والهدى، فقلت ذلك، ونهض ونهضتُ معه، فرأيتُ نفسي قائماً على الصُّفَّة، فصِحْتُ صياحَ الانزعاج والارتياع، فانتبه أهلي، وسمع أبي، وجاؤوا فقصصتُ عليهم القصة، فوجموا إلا أبي، فإنه تبسَّم وقال: ارجِعْ إلى فراشك، فالحديث يكون عند الصباح، وتأملنا الدَّورق، فإذا الجمد الذي فيه متشعب بالكسر، وتقدَّم والدي إلى الجماعة بكتمان ما جرى، وقال: هذا منام صحيح، وبشرى محمودة، إلا أن إظهار هذا الأمر فجأةً والانتقالَ من شريعة إلى شريعة يحتاج إلى مقدمةٍ وأُهبةٍ، ولكنِ اعتقِدْ ما وُصِّيتَ به، فإنني معتقدٌ مثلَه، وتصرَّفْ في صلاتك ودعائك على أحكامه، ثم شاع الحديث، ومضت مدةٌ، فرأيتُ رسولَ الله ﷺ ثانياً على دِجلة في مشرعة باب البستان، فتقدَّمتُ إليه وقبَّلْتُ يده، فقال: ما فعلتَ شيئاً مما وافقتني عليه وقرَّرتَه معي. قلت: بلى يا رسول الله، تصرَّفتُ في صلاتي ودعائي على موجبه. فقال: لا، وأظنُّ أنه بَقِيَتْ في نفسك شبهةٌ، تعالَ. وحملني إلى باب المسجد الذي في المَشرعة وعليه رجلٌ خراسانيٌّ نائمٌ على قفاه وجوفه كالغِرارة[2] المحشوَّة من الاستسقاء، ويداه وقدماه منتفختان، فأمرَّ يدَه على بطنه وقرأ عليه، فقام الرجل صحيحاً معافًى، فقلت: صلَّى اللهُ عليكَ يا رسول الله، وانتبهتُ ثم رأيتُه في سنة ثلاث وأربع مئة في بعض الليالي راكباً على باب الخيمة التي أنا فيها، فوقف وانحنى على سرجه، حتى أراني وجهَه، فقمتُ إليه وقبَّلتُ ركابه، فنزل، وطرحتُ له مِخَدَّة، فنزل وجلس وقال: يا هذا، كم آمُرُكَ بما فيه الخير لك وأنت تتوقَّف عنه؟ فقلتُ: يا مولاي، ما أنا متصرِّفٌ عليه. قال: بلى، ولكن لا يُغني الباطنُ الجميل مع[3] الظاهر القبيح، وإن كنتَ تراعي أمراً فمراعاتُكَ اللهَ أولى، قُمِ الآنَ وافعَلْ ما يجب ولا

---

(١) في (م) و(م١): الأحد.

(٢) الغِرارة: وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه. المعجم الوسيط (غرر).

(٣) في (م) و(م١): من.

openkanz.com

تخالف. قلت: السمع والطاعة، وانتبهتُ فدخلتُ الحمام، وجئتُ إلى المشهد فصليتُ فيه، وزال عني الشك، فبعث إليَّ فخرُ الملك فقال: ما الذي بلغني عنك؟ فقلت: هذا أمر كنت أعتقده وأكتمه، حتى رأيت البارحة كذا وكذا. فقال: قد كان أصحابنا يُحدِّثوني أنك [كنت](١) تصلِّي صلاتنا، وتدعو دعاءنا، وحَملَ إليَّ دستَ ثياب ومئتي دينار، فرددتُها وقلت: ما أُحِبُّ أن أخلط بفعلي شيئاً من الدنيا. فاستحسَنَ ذلك مني، وعزمتُ أن أكتب مصحفاً، فرأى بعضُ الشهود رسولَ الله ﷺ في المنام وهو يقول له: تقول لهذا المسلم القادم: نويتَ أن تكتب مصحفاً، فاكتُبْه فبه يتِمُّ إسلامُك. قال: وحدَّثتني امرأةٌ تزوجتُها بعد إسلامي قالت: لمَّا اتصلتُ بك قيل لي: إنكَ على دينِكَ الأول، فعزمتُ على فراقك، فرأيتُ في المنام رجلاً ـ قيل: إنه رسول الله ﷺ ـ ومعه جماعة ـ قيل: هم الصحابة ـ ورجل معه سيفان ـ قيل: إنه علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ـ وكأنك قد دخلتَ، فنزع عليٌّ أحدَ السيفين فقلَّدكَ إياه وقال: ها هنا ها هنا، وصافحك رسولُ الله ﷺ، فرفع عليٌّ رضوان الله عليه رأسه إليَّ وأنا مُطَّلعةٌ من الغرفة فقال: ما تَرَيْنَ إلى هذا؟ هو أكرم عند الله وعند رسوله وعندي منكِ ومن كثير من الناس، وما جئناه إلا لنُعرِّفك موضِعَه، ونُعلِمَك أننا زوجناكِ به تزويجاً صحيحاً، فقرِّي عيناً، وطيبي نفساً، فما ترينَ إلا خيراً. قالت: فانتبهتُ وقد زال عني كلُّ شكٍّ وشبهة.

وفي رواية: أن النبي ﷺ قال له في المرة الثالثة: وتحقيقُ رؤياكَ إيايَّ أن زوجتَكَ حاملٌ بغلام، فإذا وضعَتْه فسمِّه محمداً، فكان كما قال، وُلِدَ له ذكرٌ فسمَّاه محمداً، وكناه أبا الحسن، وهو صاحب التاريخ أيضاً(٢).

وكان [أبو الحسين] هلال من كبار العلماء الأدباء، وله التاريخ الذي ذيَّله(٣) على تاريخ سنان بن ثابت، وبدأ به من سنة إحدى وستين وثلاث مئة إلى سنة سبع وأربعين وأربع مئة.

[قلت: وكان هلال من الفصحاء، وله الكلام المليح، والنثر الفصيح، والمِلَح والنوادر، والفضائل والفواصل].

---

(١) هذه الزيادة من المنتظم.

(٢) إلى هنا من الترجمة في المنتظم ١٦/ ١٣ـ١٤. وينظر تاريخ بغداد ١٤/ ٧٦.

(٣) في (م) و(م١): دل به.

وكانت وفاة هلال في رمضان ببغداد، وكان قد سمع قبل أن يسلم جماعة من النُّحاة وتأدَّب بهم، منهم: أبو علي الفارسي، وعلي بن عيسى الرُّمَّاني، وغيرهما. وقد ذكره ولده غرس النعمة في «تاريخه» فقال في خطبة الكتاب: وبعد، فكان والدي وصَّى إليَّ لمَّا أحسَّ بقدوم الوفاة، ويئس من أيام الحياة، ولمعَتْ له لوامع المنية، وقرعت سمعَه قوارعُ البلية؛ رغبةً في زيادة الذِّكر ونمائه وانتشاره وبقائه، بصلة كتاب التاريخ الذي ألَّفه إلى آخر سنة سبع وأربعين وأربع مئة تأليفاً يعجز عنه من يروم مثلَه، يفتضح فيه من يتعاطى فضله، إذ هو السحر الحلال، والعذب الزلال، والصادر عن أوْحَدِ دهره، وفريدِ عصره، وشَرَع فيه وقد أتَتْ عليه سنةٌ جرَّب فيها الأمور ومارسها وخبرها ولابسها، وأنا عارٍ من جميع صفاته، وخالٍ من سائر سِماته: [ومن البسيط]

وابنُ اللَّبون إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ ... لم يستطِعْ صولةَ البُزْلِ القناعيسِ[(١)]

لكنَّ قوله مستمَعٌ، ومرسومَه متَّبَعٌ، وأمرَه مطاع، ورأيَه غيرُ مُضاع.

ثم إنه قال في سنة ثمان وأربعين وأربع مئة: وفي يوم الأربعاء سادس عشر رمضان توفِّي والدي الرئيس أبو الحسين هلال بن المُحسِّن بن إبراهيم بن هلال، ومولده يوم الأحد النصف من شوال سنة تسع وخمسين وثلاث مئة، فانتقض السُّؤدَدُ بمصابه، وانثلم الفضلُ بذهابه، فهو كما قيل: [من البسيط]

لا أُمَّ للموتِ كم يُبلي بجِدَّتِهِ ... في كلِّ يومٍ حكيماً ما لَهُ خلَفُ
أصابَ قصداً هلالاً في تكامُلِهِ ... وبحرُ منطقِهِ ما ليسَ يُغترَفُ
لم يُبلِهِ الدهرُ ما دامَتْ بدائِعُهُ ... تُطوى على جَمْعِها الأخبارُ والصُّحفُ

وأنشد أيضاً: [من البسيط]

ماتَ البديعُ وغارَتْ دُرَّةُ الفَطِنِ ... واستدرجَ الموتُ بحرَ الفضلِ في كفنِ
للهِ دَرُّ المنايا ما صنعْنَ به ... وما تضمنتِ الأكفانُ من بدنِ

(١) قائله جرير، وهو في ديوانه ص ٢٥٠، والبُزْل؛ جمع بزول: وهو الجمل، والقناعيس؛ جمع قِنْعاس: وهو الجمل الضخم العظيم. اللسان (بزل) و(قنعس).

obeikandi.com

قولُه: للهِ دَرُّ المنايا ما صنعْنَ بهِ، فيه نظر؛ لأن لفظة «دَرّ» إنما تُستعمل في استحسان الأفعال، وقد كان هلال من الفصحاء؛ قال يمدح رجلاً: هو خارجٌ من منبع الصفا، والجٌ في مربع الوفا. وقال: فلانٌ مَعلَمُ الرُّبا، منعم للرِّبا، حاضر الدعوى، غائب العدوى، جلَّت عنده الحِباء، لمَّا جلَتْ عنده النِّهاء. وقال: واللهُ يجعل أبكارَ عرائسِه مقبولةَ المُجتلى، وثمارَ غرائسه مَغْسولةَ المُجتنى. وقال: امتناع اللقاء يحلُّ عقد الإجار بحبل عهد الوفاء. وقال: أنا واحد من أوليائك، وإن كنت واحداً في ولائك. وقال: تولَّاه الله فيما ولَّاه، ووالى إليه جميلَ ما أولاه. وقال: دواماً لا انفصامَ لِعُراه، ولا انفصالَ لِعُلاه. وقال: وليس شكري إياك عن برٍّ ائتَسَيْتَه لما أسْدَيته، وعُرفٍ واليتَه لما أوليتَه، ولا لمُهجةٍ حويتَها ما أجبتَها، وحُشَاشَةٍ ملَكْتَها لما تداركتها، بل لأجل الحُرمة التي تمكَّنت فتملَّكت، والثقة التي استحكمت فتحكَّمت. وقال: فلان روضة الدهر وزهرتُه، ومستراد الطَّرف ونزهتُه، وخِلْسةُ العيش ونُهزَتُه، وأريحية السرور وهزَّتُه. وقال: ذو العلم المشهور، والعلم المنشور. وقال: في دولةٍ مؤذِنةٍ بالمقام والاستقرار، ضامنةٍ للدوام والاستمرار. وقال: هو لأسباب المعالي جائز، ولغايات المساعي حائز. وقال: أقتدي بالخلفاء فيما حكَوه من ذلك المثال، أو حاكُوه على ذاك النَّوال. وقال: صحيفة مجلوَّة، وصحيفة مملوَّة. وقال: الحمد لله الذي أعطى الإنسان بفضيلة النُّطق، مزيَّة السَّبْق، وجعل له من العقل الصحيح، واللسان الفصيح، مُبيناً عن نفسه، ومخبراً عما وراء شخصه، فأضحى بذلك قوياً على استنباط واستخراج المستنبَطات. وقال يذمُّ رجلاً: لا يبدو له وجه حياء، ولا يندى منه كفٌّ حِباء. وقال: عَدلَ عن التجبُّر والاستعلاء، إلى التحتُّر(١) والاستجداء. وقال: ذلك ما جنَيْتَه على نفسك، وجنَّبتَه من غرسك. وقال: عَلِقَتْهم النحوس، فعقلتهم الحبوس.

---

(١) التحتُّر: التضيق في الإنفاق. المعجم الوسيط (حتر).